



أحمد
بن شمسي

هناك حياة بعد تيندوف

بداية الحل الدائم، وبالمناسبة إنهم يستحقون فعلا الاحترام؛ ألم يقضوا مضجع جيشنا رغم تفوقه كَمَا وكيفا بفضل حرب عصابات قاسية اضطررنا في النهاية إلى بناء جدار ضخم في الصحراء لصد هجماتهم المتكررة؟ هذا الجدار الذي بفضلته تمكن المغرب أخيرا من ضمان أمنه وكَسَب الحرب. إننا اليوم في حاجة إلى كسر جدار من نوع آخر. جدار الحكرة. قد يكون ذلك صعبا بالنظر إلى عاداتنا الثقافية، فالحكرة لا يعاني منها الصحراويون فقط بل المغاربة قاطبة. إننا نمشي في الطريق الصحيح والحريات في تقدم ولو بشكل متعثر وما علينا إلا أن نسرع الخطى. يجب

المفتاح في نظرنا هو الكرامة، تلك الخصلة الأساسية في الروح الصحراوية.

أن نمح المزيد من الحريات لـ«صحراييننا»، بما في ذلك حرية التعبير عن اختلافهم السياسي ولو ذهب ذلك إلى حد إضفاء الشرعية على النزعة الاستقلالية. ولم لا؟ ففي إسبانيا مثلا لم يؤثر وجود أحزاب سياسية استقلالية في إقليمي الباسك وكاتالونيا على وحدة وتضامن البلاد. لنكف عن التعالي على الصحراويين ولنعطهم ألف سبب لكي يجوبنا صراحة وبدون إكراه. لنطبق مشروع الحكم الذاتي، هذه الفكرة الذكية، بدون إبطاء ولا انتظار لنتائج مفاوضات عقيمة. لنجعل الصحراويين يحسون بأنهم في بلادهم معززين مكرمين بفضل سياسة تنمية حقيقية. وربما بعد مرور بعض الوقت ستندم تلقائيا فكرة الاستفتاء. أو سنقبل مبداه لأننا سنكون واثقين (هذه المرة) من كسب رهانه. ■■■

المغاربة بالتخلي عن الصحراء، هذا الإقليم الذي يمثل نصف مساحة ترابهم، ثم يسلموا مفاتيحه إلى شعب يقل عدد سكانه عن سكان حي المعاريف بالدار البيضاء؟ إن مجرد التفكير في كون المغاربة سيقبلون ذلك نوع من العمى. وفي الطرف الآخر يستمر المسؤولون المغاربة في سياسة النعامة، مؤكدين بأن «الشعب المحتجز في تيندوف لا يحلم سوى بالالتحاق بالوطن الأم». وهذا من باب العمى أيضا. نعم بعض الصحراويين التحقوا بالمغرب، لكن كم عددهم الإجمالي بالمقارنة مع أولئك الذين بقوا في المخيمات؟ نعم الحياة قاسية جدا هناك، لكنهم يعيشونها بهامات مرفوعة. أضف إلى ذلك أنهم تربوا منذ نعومة أظفارهم على التعلق بأرض أجدادهم «المغتصبة». أما الاستفتاء فهم يعتبرونه حلا مشرفا لأنهم متيقنون بأنهم سيفوزون به في حال إجرائه. لكن ماذا لو خسروا

الرهان؟ قياديو البوليزاريو يصرحون بأنهم سيخضعون لأي نتيجة قد يفرزها الاقتراع الديمقراطي. لكن ماذا عن الشباب الذين يشكلون غالبية سكان المخيمات؟ إنهم في واد آخر تماما، وهم يقسمون بأنهم في حال خسارة الاستفتاء سيفضلون الاختفاء بين كثبان الصحراء بسلاحهم على «الاستسلام». نفق مسدود، إذن؟ أو هو صلح مستحيل؟ ليس بالضرورة...

المفتاح في نظرنا هو الكرامة، تلك الخصلة الأساسية في الروح الصحراوية التي لم ينتبه لها المغاربة بما فيه الكفاية. إن عقدة الصحراويين كما عايشناها في المخيمات هي إحساسهم بالمهانة والحكرة من طرف المغاربة. المفتاح السحري هو إقناعهم بأننا لا نحتقرهم أبدا وبأنهم يستحقون منا كل الاحترام. هنا تكمن

ملحوظة

الأسبوع الماضي ونحن، زميلي المهدي السكوري العلوي وأنا، منغمسان في رحلتنا، كثر الحديث في بعض الجرائد عن كوننا «استأذنا السلطات المغربية» قبل أن نتوجه إلى تيندوف. هذا خبر زائف ومهين لاستقلاليتنا المهنية. ونريدوكم؛ كنا شوية منويين من أش غبطرا فالرجعة. وكانت حقا مفاجأة سعيدة حين لم نتعرض للمساءلة من طرف أي أحد، لا في المطار ولا خلال الأسبوع الذي حَضَرنا فيه هذا العدد الخاص من «نيشان». إنها نقطة جيدة في صالح النظام ودليل على سعة صدره. على الصحراويين في تيندوف أن يتأملوا المسار الذي قطعناه. ربما قد يغيرون (ولو بقليل) نظرتهم عن المغرب...

هناك في أقصى الجنوب الشرقي للجزائر، على بعد أقل من 100 كيلومتر من الحدود المغربية، يوجد 160 ألف شخص يكرهوننا من أعماق قلوبهم. يعتبروننا مستعمرين، محتلين، وحوش كاسرة صادرت أرضهم وبسببها تحولوا منذ 33 عاما إلى متشردين على أرض غريبة. طبعنا خلال رحلتنا إلى تيندوف لم تكف قيادات البوليزاريو عن ترديد نفس اللازمة التي أنهكت أسماعنا: «ليس لدينا أي مشكلة مع الشعب المغربي، مشكلتنا هي مع النظام الحاكم». لكن ماذا يريد هؤلاء بالضبط؟ أظنون أننا بين عشية وضحاها سنقلب «نظامنا الحاكم» لـ«يتحرق» الشعب المغربي من الملكية ويسارع إلى منح الصحراء على طبق من ذهب إلى دعاة الاستقلال، كما كان يتبادل الثوار الهدايا أيام زمان؟ حتى في تيندوف لا أحد له ما يكفي من السذاجة كي يعتقد هذا. أما كلام المسؤولين فهو مجرد خطاب للتسويق فحسب. من المعروف أن الحقيقة عادة ما تخرج من أفواه الأطفال، والأطفال الذين صادفناهم في مخيمات تيندوف كلما أدركوا أننا مغاربة انتابهم الخوف وحذقوا فينا بنظرات مرعوبة قبل أن يهددونا بكسر رؤوسنا. نعم هؤلاء الأطفال وأباؤهم لديهم مشكلة مع الشعب المغربي! إبراهيم غالي سفير «الجمهورية الصحراوية في المنفى» لدى الجزائر صرح لنا بأن أكثر ما يحز في قلبه هو «صمت الشعب المغربي اتجاه مأساة الصحراويين». يا سعادة السفير، ألم يخطر ببالك أن الشعب المغربي ربما يرى الأشياء بمنظار آخر، ويعتقد، مثل كاتب هذه السطور، بأن الصحراء جزء من كيانه الوطني؟ ليس هذا لأسباب تاريخية بالضرورة، لأن كل طرف من أطراف النزاع بعيد كتابة التاريخ بالشكل الذي يناسبه... للمغاربة أيضا مأساتهم، سعادة السفير: آلاف الضحايا سقطوا في المعارك، آلاف أخرى ذاقت مرارة الاحتجاز، حرب طاحنة وشبه سرية في عز سنوات الجمر الحسنية، مشاريع الإصلاح الديمقراطي المؤجلة بذريعة «قضية الصحراء المقدسة» التي تحولت إلى رأس حربة المحرمات المغربية... أضف إلى ذلك كله، التضحية المالية الرهيبة التي تطلبها هذه القضية، وهي تضحية أداها المواطنين المغربية من جيوبهم طيلة أكثر من ثلاثين عاما. هل بعد كل هذه الكوارث يجرؤ أحد على نصح